لثلاثين شاعراً وانتخب منها ما ينسجم مع ذوقه الرفيع . وقد رتبها ترتيباً زمنياً بدأ
وانتهى فيها بالشاعر أبن عنين . لم يكد ينتهي من ترتيب ديوانه الضخم ومختاراته
حتى سقط قلمه في كانون الأول عام ١٩٠٤م وكأن القدر كان ينتظر منه إكمال رحلته
فن الشعر .

## الشعر والشاعرية :

يقتضينا البحث في شعر الشاعر أن نقف عند تعريفه له ومفهومه لديه ، فقد
البارودي في مقدمة ديوانه تعريفاً للشعر ووظيفته فقال (إنّ الشعر لمعة خيالية يتألق
في سماوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب ، فتفيض بالأنهار نوراً يتصل
اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ، ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بدليلها السالك . وخير
ما ائتلفت ألفاظه واختلفت معانيه ، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليماً من
التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة ، فهذه صفة الشعر الجيد)

ويتضح من هذا التعريف أن الشعر في نظر البارودي ليس وليد التكلف
وإنما هو وليد الطبع . وقد عبر عن ذلك في شعره حين قال :

أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر

وهذا يؤكد أن شعر البارودي (لم يعد كلفاً وجيلاً بديعية ولا أبياتاً تفرأ
وعكساً ولا أرقاماً حسابية تجمع تاريخاً معنياً ، لم يعد اضطراباً في التواء ، ولا تلفيق
أصبح شيئاً طبيعياً يتدفق في النفس)[٢] .

ولا يبتعد تعريف البارودي للشعر عن مفهوم القدماء له ، إذا أكدوا على

---

(١) الديوان ١ / ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) البارودي رائد الشعر الحديث / ١٠١.

بين ألفاظ الشعر ومعانيه ، وعلى استواء الفكرة وبعدها عن التعقيد ، كما نادى كثير منهم بالبعد عن التكلف وهجر الصنعة التي تسيء اليه .

وهذا يتصل بهذا مواءمته بين ألفاظ الشعر ومعانيه (إذا كان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني التي يريدها ، فيرق ويلطف حين يقضي المقام الرقة واللطف ، كأن يغزل أو يعتب أو يصف منظراً جميلاً أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل صداه ويشتد أسره حين يشدو في الحماسة والفخر والمديح ، وحين يصف البحر الهائج والريح العواصف والحرب الضروس)[1] .

وهذا ما نبه اليه نقادنا القدامى حين أشاروا إلى مطابقة الألفاظ للمعاني ، ولا يبعد أن يكون شاعرنا قد أطلع عليه وتأثر به ولقي استجابة في نفسه حتى بعثه من جديد . كما بعث القول نفسه من جديد .

والذي يقرأ شعر البارودي يجد فيه استجابة لفهمه الخاص بعيدة عن التقليد ، إيماناً منه بأن الشعر لا يجب أن يبتعد عن طبع قائله ، بل يعبر عن جوهر نفسه وأن لا يكون وليد التكلف بقدر ما يكون وليد الطبع ، وهو في هذا يحقق بعث الشعر العربي وبعث مفهومه وطريقته ، ويكون رائداً لهذا البعث الشعري .

أما بالنسبة لمهمة الشعر فقد تحدث شاعرنا عن (وظيفة الشعر الاجتماعية والنفسية ، فمثله كمثل جميع الفنون يهذب النفوس ويصقلها ... كما لا ينسى ما يؤديه من دعوة إلى مكارم الأخلاق ..... وقد تعمقه هذا الإحساس بوظيفة الشعر الاجتماعية تعمقاً بعثه على أن يخلف بظروف أمته السياسية ومشاعرها القومية ... ويلاحظ البارودي ملاحظة دقيقة هي تأثير الشعر تأثيراً بالغاً في نفوس الناس ... ذلك أنه ترجمان الروح يفصح عن كل ما يجري بها من أحاسيس ومشاعر وخواطر وأحلام وآلام وآمال)[2] .

ولا شك أن هذا التأثير يتصل بصدق التجربة التي لا يقف تأثيرها عند حدود الشاعر

---

(١) في الأدب الحديث: عمر الدسوقي ١٠ / ٢٣٨ - ٢٣٩.

حسب بل يتعداها إلى التأثير في نفس السامع .

ذلك هو فهم البارودي للشعر . وتلك هي وظيفة لديه ، وهي كما نرى لا تختلف عن مفهوم القدماء له ، لكن الذي يُسجل له في هذا الميدان هو أنه قد طبق مفهومه هذا وحققه في شعره ، وهو ما حقق أيضاً تجديداً ملحوظاً في موضوع القصيدة العربية ، ليس منه بأدّ من حق الوطن على الشاعر أن يستجيب لندائه وقد لبّى البارودي داعي الاستجابة

✿ ✿ ✿

نظم البارودي شعره في معظم الموضوعات القديمة ، تحقيقاً لبعث الشعر القديم في الفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف والعتب .

وقد عاش في بعض هذه الموضوعات في الأجواء العربية القديمة ، بعيداً عن حياته المعاصرة وبيئتها الجديدة ، بل إنه ليضرب في متاهات نجد ورباها ووديانها ورمالها فيقول:

أشتاق نجداً وساكنيه ... وأين مني الغداة نجد

ويتحدث عن لياليه بوادي الفضا فيقول :

أين لياليا بوادي الفضا ... ذاك عهد ليته ما انقضى

ويقف ـ وهو شاعر مصر الذي نشأ في القاهرة وعاش لياليها وتمتع بطبيعتها وغاص بلهوها وحقق أحلامه الجميلة بقصورها وحدائقها وجزرها ـ يقف هذا الشاعر على الأطلال والدمن ليقول شعراً يكاد يكون جاهلياً روحاً ومعنى ، ربما لأتمت إلى حياته وبيئته بصلة :

ألا حي من أسماء رسم المنازل ... وإن هيّ لم ترجع بيانا لسائل

خلاءٌ تعفتها الروامس والتقت ... عليها اهاضيب الغيوم الحوافل

فلأياً عرفت الدار بعد ترسم ... أراني بما كان بالأمس شاغلي

وهو يفعل مثل ذلك في نسيبه وفي وصفه للمرأة الحبيبة فيعمد كما يقول عمر الدسوقي(إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهي تحكي الظبي في كتابه والبدر في سمائه ، وهي مهاة والحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى[1] :

إذا نظرت أو أقبلت أو تهللت فويل مهاري الرمل، والغصن والبدر

وحين يصف المرأة يقول :

كالورد خداً ، والبنفسج طرة والغصن قداً والغزالة ملفتا

وكما عاش أجواء القدماء في أوصافهم وأطلالهم ونسيبهم ، فقد حاكاهم في معانيهم فيقول في الغزل :

طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر

وهو معنى استقاه من أبي فراس :

وفي الفخر بقومه يقول :

لهم عمد مرفوعة ومعاقل وألوية حمر وأفنية خضر

وهو معنى أخذه من عمرو بن كلثوم .

وفي الحكمة يقول :

وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سفر ويتركها سفر

---

(١) في الأدب الحديث / ٣٤٢.